أسواق مدينة تونس في كتابات
الرحالة الأوروبيين في العصر العثماني

د. مـيَ السيد السيد محمد
وزارة السياحة والآثار
mai2181972@gmail.com

ملخص البحث:
تعد الأسواق من المرافقِ الأساسية العامة في المدن الإسلامية، تطور إنشاؤها مع تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية، وأدى تطور النشاط التجاري ونظم التجارة إلى تنوع الأسواق، ولم تشذَّ تونس عن هذه القاعدة؛ والتي شهدت عقب الحضور العثماني ٩٨٣هـ/١٥٧٤م ازدهارا اقتصاديًا، معماريًا، وعمرانيًا.

هدف البحث :
يهدف البحث إلى إظهار دور الرحالة الأوروبيين التي جمع بينهم حب الرحلة، وفرقت بينهم المقاصد والأساليب للوقوف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثم السياسية آنذاك.

أهمية البحث:
إلقاء الضوء على أهمية الأسواق كمركز للنشاط التجاري وتبادل السلع وبؤرة لتبادل الأفكار والشائعات، وما يحدث من مناقشات في أمور السياسة، لذا كانت محط اهتمام الرحالة الأوروبيين بالشمال الأفريقي عامة وتونس خاصة .

منهجية البحث:

يتناول البحث هذه الدراسة في عدة مباحث ؛يتعرض أولها: للأسواق في المدن الإسلامية "نشأتها، تطورها، أنماطها، تخطيطها، توزيعها"، بينما يستعرض المبحث الثاني دراسة أسواق مدينة تونس في العصر العثماني من خلال الناحية المعمارية للأسواق، وكيفية الرقابة عليها، وطرق البيع فيها (كالبيع بالدلالة) ، أما المبحث الثالث: فيتناول ملاحظات الرحالة الأوروبيين حول الأسواق، دوافعهم، طبيعية كتاباتهم وقيمتها .

و يختم البحث بعد ذلك بأهم النتائج و التوصيات ...

The markets of Tunis in the writings of European travelers in the Ottoman era

Dr. Mai El-Sayed El-Sayed Mohamed
Ministry of Tourism and Antiquities - Egypt
mai2181972@gmail.com

An introduction:

Markets are among the basic public facilities in Islamic cities, the development of their establishment with the development of social and economic life, and influenced by political and economic conditions, and the development of commercial activity and trade systems led to the diversification of markets, and Tunisia did not deviate from this rule; which witnessed after the Ottoman presence in 983 AH / 1574 CE. Economic, architectural and urban prosperity Research objective:

The research aims to show the role of European travelers, who combined the love of the journey, and separated the purposes and methods among them to determine the social, economic and then political conditions at the time .

Research importance:

Shed light on the importance of markets as a center for commercial activity and exchange of goods and a hotbed for exchanging ideas and rumors and the discussions that are taking place in policy matters.

Therefore, European travelers in North Africa in general and Tunisia in particular were the focus of attention .

Research Methodology :

The research deals with this study in several topics; the first of which is exposed: to the markets in Islamic cities "their origin, development, patterns, planning, and distribution", while the second topic reviews the study of the markets of the city of Tunis in the Ottoman era through the architectural aspect of the markets, how to control them, and sales methods In it (like selling by indication), and the third topic deals with the observations of European travelers about the markets, their motives, the nature of their writings and their value.

And then the research concludes with the most important results and recommendations ..

مقدمة :

عُدت الأسواق[١] مؤسسات اقتصادية – اجتماعية محيطها الأساسي المدن التاريخية والمركزية في العالم الإسلامي، وتُعد مدينة تونس إحدى أهم هذه المدن، وقد عكف المستشرقون على دراستها، ورأى بعضهم أن الإسلام ديناً خاصاً بسكان المدن أكثر من غيرهم، من خلال بحثهم في خصائص المدن الإسلامية وعرض صورة نوعية ونموذجية لها أمثال Virat، Marcais ،وشَكلت الأسواق لدى الجغرافيين مركز اقتصاديًّا وعنصراً رئيسًا من عناصر المدينة كالمسجد الجامع والحصن، بينما اهتم علماء الاجتماع اهتمامًا كبيرًا بتأثير المؤسسات الاقتصادية في مجتمع المدينة مثل الخصوصيات الاجتماعية، وأهمية مؤسسة الوقف في اقتصاد المدينة وعمارتها وعمرانها، ويرى الأثاريون أن تميز الأسواق في المدن الإسلامية كان في مجمع السوق الذي هو أهم المنجزات الحضارية في المرحلة الإسلامية فلا نظير له في المشرق القديم، وأثبتت الدراسات الأثرية أن إحدى السمات الأساسية للمدينة الإسلامية هي بناؤها التجاري كمجتمعات موحدة النمط، متصلة ببعضها البعض في مساحة مضغوطة في وسط المدينة.

---

[١] عن التعريف اللغوي للسوق راجع : ابن سيدة، علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق : خليل إبراهيم جفال، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤١٧،١هـ – ١٩٩٦م، ج٣،ص٥،٤٣٥ج،ص١٤٥، ابن منظور، محمد بن مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرون، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط ١، ١٣٥٨ – ١٤٢٢هـ/ ١٩٦٥ – ٢٠٠١م، ج٢٥،ص٤٧٧؛ ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٨،ج ٣،ص١٧٧(نسخة إلكترونية)؛ الزمخشرى، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق : محمد باسل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م،ج ١،ص٨٨٤؛ وعن التعريف الاصطلاحي راجع: الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق : محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١ ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ٩ج، ص١٨٤؛ المطرزي، ناصر بن عبد السيد، المغرب في ترتيب المعرب، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ت)، ص٢٣٩، ابن منظور، لسان العرب، ج١٠،ص١٦٧ مجموعة مؤلفين، البازار في التراث الإسلامي، مقالة مستله من دائرة معارف العالم الإسلامي مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، ١٩، ٢٠.

الأسواق في المدن الإسلامية :

(١-١) نشأة وتطور الأسواق :

وجدت الأسواق كظاهرة ضرورية اقتصادية واجتماعية وتجارية منذ القدم مع وجود الناس على سطح المعمورة، وقد أسهمت عدة عوامل في نشأة الأسواق ونموها؛ وتطورها كالموقع الجغرافي، وطرق المواصلات، والأنشطة الدينية وغيرها....

وقد سعت الدولة الإسلامية منذ بداية تكوينها في المدينة المنورة إلى توفير الأسواق التجارية داخل إطار حدودها[١]، وذلك لما فيه من تدعيم وتقوية اقتصادية، وتوفير فرص العمل لقاطينها، وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع في عملية البيع والشراء، مع التزامها التام في رعاية هذه الأسواق وحمايتها والإشراف عليها، وإيجاد سبل العمل على تطويرها.

فمنذ هجرة الرسول صل الله عليه وسلم إلى المدينة، أعلن قيام السوق للدولة الإسلامية الناشئة، وحدد موضعه في أرض فسيحة، فحدده وخطة برجله، فقد روي ابن ماجه بإسناد ضعيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أتى إلى مكان فسيح فحدده وضربه برجله ثم قال: هذا سوقكم فلا ينتقصن ولايضرين عليه خراج[٢].

ولقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بحرية السوق وإتاحة الفرص المتكافئة بين الجميع على حد سواء، جعلها حرة دون استثناء، ودون حكر الأماكن في السوق أو احتجازها لأى أحد من الناس[٣].

---

[١] كانت أحد أهم شروط اختيار مواقع المدن أن تقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب، انظر: ابن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر، (سوريه: ١٩٩٦م)، ص ٢١.

[٢] ابن ماجه، عبد الله محمد، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، (د.ت) كتاب التجارات، باب الأسواق، ج ٢، ص ٧٥١، حديث رقم ٢٢٣٣؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازى والسير، تحقيق لجنة حفظ التراث، بيروت: ١٩٨٠، ١ج، ص٣٥١؛ السمهودي، نور الدين أبو الحسن، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: ١٩٧١م، ج٢،ص٧٤٧.

[٣] أكد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك بقوله : "الأسواق على سنة المساجد، من سبق إلى مقعده فهو له حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه"؛ كاظم الجناني، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، خاصة في العصر الأموي ، الجامعة المستنصرية، بغداد : ١٩٩٧م، ص ٨٦ .

كذلك أظهر الخلفاء الراشدين اهتمامهم الخاص بالأسواق لكونها من أهم مؤسسات الدولة الاقتصادية، ولم يبدأ التطوير بالبناء في الأسواق إلاً في بداية العصر الأموي وكانت المحاولات الأولى في عهد معاوية بن أبى سفيان[١] مع توفير الخدمات اللازمة لها وإعطاء الأسواق المساحة الواسعة[٢]، وتكرر هذا النمط التخطيطي في مدن الأمصار وأنشئت الأسواق على هذا النهج في بغداد بعد إنشاء الرصافة والكرخ وتعددت أمثلتها، واختلفت أهميتها كانعكاس لانفصال المحلات السكنية وتباين قوة القبائل ونشاطها، ويلاحظ أنها كانت تقع على أطراف المحلات، أي إنه كان هناك نوع من الانفصال بين المنطقة السكنية والسوق، ولعل مرجع ذلك إلى أسباب دفاعية واجتماعية[٣]، وانطلاقًا من تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المدن الإسلامية، وتأثر بالأوضاع السياسية والاقتصادية للدولة الإسلامية المتتابعة، وتطور نظم التجارة وغيرها حرص الولاه على تعدد الأسواق وتنوعها وتخصصها، وتصفيتها وذلك بجعل كل مهنة لها سوق متخصصة فيها، وجعلوا تعاملاتها متوافقة مع الأحكام الإسلامية السمحة[٤]، وحددت مواضع الأسواق في وسط المدينة بالقرب من دار الإمارة والمسجد مع عدم السماح لأحد بالبناء فيها أو تغيير مساحتها وبناء الحوانيت الخاصة بكل سوق[٥]، وقد اتسمت مظاهر تطور الأسواق في العصر الأموي بالبناء في سوق المدينة المنورة وكان البناء عبارة عن بنائين: الأول دار القطران، والثاني دار النقصان وتم تأجيرهما[٦].

تلا ذلك سوق الفسطاط، وفي عهد عبد الملك بن مروان ؛ بنى والي مصر أنذاك عدة قيساريات منها قيسارية البز، قيسارية الحبال، قيسارية الكباش، قيسارية العسل[٧] أما الشمال

---

[١] محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨ م ،ص ٥٨ .

[٢] الأزرقي، محمد بن عبد الله، أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار، تحقيق عبد الملك بن عبد الله دهيش، مكة المكرمة، مكتبة الأسدي، ط٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ٢، ص٧٥٢؛ اليعقوبي، البلدان، ص٣١، ابن رسته، أحمد بن عمر، الأعلاق النفسية، شركة نوابع الفكر، ط١،القاهرة: ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م،ص ١٣٣ .

[٣] السامرائى خليل، محمد تأثر حامد ،المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد النبوة، الموصل: ١٩٨٤، ص٢٦.

[٤] الكبيسى، حمدان عبد المجيد، أسواق العرب التجارية، دار الشئون الثقافية العامة، ط١ ، بغداد : ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ،ص ٤٢

[٥] ابن زبالة، محمد بن الحسن، أخبار المدينة، تحقيق : صلاح عبد العزيز سلامة، المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة، ط١، المدينة: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ، ٢٣٩؛ اليعقوبى، البلدان،ص ص ٥٩ –٦١ في صدر الإسلام، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١ ، عمان ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م،ص ص ١٧٩ – ١٨٠

[٦] السمهودي، المرجع السابق،ج ٢،ص٧٥٠

[٧] ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، القاهرة : ١٩٦١، ص ١٣٦ .

الأفريقي، فحدثنا **البكري** عن مدينة القيروان ذاكرًا السوق المجاور للمسجد من ناحية القبلة، ووصف السوق بأنه كان له سقف يضم كل الحوانيت والحرف وأمر هشام بن عبد الملك بإعادة بنائها في ١٠٥هـ[١]، كذلك اهتم بإنشاء الأسواق بهذا النمط المسقوف في مدن الأمصار، فبنى في الفسطاط قيسارية كبيرة باسمه، وأقام عامله على العراق خالد القسري الأسواق وسقفها وحدد مواضع لكل من البائعين في تجارة معينة، وعُني بعمارة سوق المدينة وتطويره وأشار **ابن زبالة** إلى شكل البناء بقوله "يتكون من طابقين: الأرضي استخدم كحوانيت تؤجر للتجار والبائعين، والعلوي يؤجر للسكني" وكرر هشام إنشاء مبنى مشابهة في بقيع الزبير، وكان له أبواب قام بتأجيرها[٢]، ومن ثم يمكننا حصر التطور في الأسواق خلال العصر الأموي في بناء أسواق وتغطيتها بهيئة معمارية كفلت وجود حوانيت للتجارة ومساكن تعلوها أجرت للراغبين في السكن، وإقرار مبدأ تأجير البناء التجاري، وتبلور تصنيف التجار في مجموعات لكل مجموعة متخصصة في تجارة بعينها موضع بذاته، ويُعد اهتمام الأمويين بالأسواق في إطار سياسة الدولة التي وجهت إلى تعمير المدن دفعًا للتطور الاقتصادي[٣] وتوازيًا مع تأمين التجارة وقوافلها ، وإنشاء الخانات على امتداد الطرق التجارية، وتعريب السكة[٤].

أما العصر العباسي، فقد شهد تطورًا ملحوظاً في الأسواق بداية من عهد المنصور الذي اهتم بتوفير سوق في كل ربع من أرباع مدينة بغداد وأشار **اليعقوبي** لذلك بقوله حدد لكل اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الأذرع، ولمن معه من أصحابه وماقدره للحوانيت والأسواق في كل ربض، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون لكل ربض سوق جامعة تجمع التجارات"[٥].

وحرصًا من المنصور على أمن بغداد ونظافتها وهدوتها إنشاء الكرخ ليضم التجار وحدد لكل أهل تجارة مكانًا لهم يختصون بتجارتهم، وأمر ألا تتاجر فئة فيما تتأجر فيه الفئة الأخرى وفصل بين أهل التجارات والحرف في تصنيف دقيق وخُصص لكل حرفة منطقة خاصة بها[٦] وأنشئت أسواق سامراء على النسق ذاته بحيث صار إنشاء الأسواق المتخصصة نمطاً تقليديًّا في المدينة الإسلامية.

---

(١) البكري، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر: ١٩٥٧م ، ص ٥٢ .

(٢) السمهودي، ج ٢، ص ص٧٥٠–٧٥٢ .

(٣) حجاب، منير، الدعاية السياسية في العصر الأموي، مؤسسة سعيد للطباعة،القاهرة : ١٩٨٦م ، ص٥٣، ص ٢١٥ ؛ بحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، ط ١٩٨٦ م ، ص٣٩ .

(٤) عبد العزيز الدوري، مقدمه في تاريخ صدر الإسلام،ص ص ٨٣ – ٨٤ .

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص٢٤٢ .

(٦) اليعقوبي، المرجع السابق، ص١٨.

مما سبق عرضه، يتضح أن تطوير الأسواق في المدن الإسلامية كان على يد الدولة سواء أكان بالإنشاء كما حدث في الكوفة وبغداد، أم بالإضافة والتعديل والإصلاح والتطوير مثلما حدث في الفسطاط والقيروان وغيرها[١].

(١-٢) أنماط الأسواق في المدن الإسلامية:

من السمات الرئيسة للمدن الإسلامية أنها ذات طابع تجاري، ويرى بعض الباحثين أن السبب الرئيس لنشأة المدن كونها مراكز للتبادل التجاري لإنشائها عند ملتقى طرق التجارة[٢]، ونظرًا لكون الأسواق مركز النشاط التجاري بصورة ومراحله المختلفة فقد انعكس ذلك على نمطية الأسواق وأنواعها أنعكاسًا مباشرًا ففي الإطار المكاني المحدد الموضع والمساحة، وجدت الأسواق الكبيرة كذلك الموجودة خارج المدن قريبة من أبوابها وأسوارها، وكانت تقام أسبوعيًا، وتتسع للقادمين من مدن مجاورة، فضلاً عن الأسواق داخل المدن المتنوعة الموضع والمساحة حسب الخدمة والنشاط الذى تؤديه منها مايخدم المدينة كلها، ومنها ما يختص بتلبية احتياجات يومية لقطاع صغير في المدينة.

ونظرًا لصغر حجمها وتحديد وظيفتها، سُميت سويقات لصغرها عن تلك التي تخدم المدينة كلها، بالإضافة إلى انتشار نوعيات معينة من الحوانيت[٣] والمخابز لتفي بالحاجات المستمرة.

وفي الإطار الزمني، وجدت الأسواق السنوية[٤] الموسمية كتلك التي كانت للعرب قبل الإسلام واندثرت فيما بعد، والأسواق الأسبوعية، كسوق الثلاثاء في بغداد، وسوق الأحد في دمشق، وسوق الخميس في فاس ومراكش[٥]، وسوق الأربعاء في الموصل، وسوق الأثنين في مكناس.

---

(1) Hathloul,S.A, Tradition, continuity and change in the physical Environment the arab muslin city . Phd. Submitted to the department of architecture at M.I.T.1981,P.72.

(٢) عرفان سامي، نظريات العمارة العضوية، مؤسسة طباعة الألوان المتحدة، القاهرة : ١٩٦٨م، ١٢٨ ؛ بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت:١٩٨٣، ص ١٣٩

٣ ليو الأفريقي، وصف إفريقية، ترجمة: محمد حجى، محمد الأخضر، دار العرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٣، ص٢٤٣.

٤ ليو الإفريقي، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

5 Chalmeta (P.), Market in Islamic city. Market in Islamic held city. Edited by R. Serjeant unesco, selected papers from the colloquium held at middle east center Faculty of oriental studies, Cambridge, united kingdom, 1976, P.107

(١-٣) التكوين المعماري وتخطيط الأسواق في المدن الإسلامية :

اتخذت الأسواق والمنشآت التجارية في المدينة الإسلامية نمطين رئيسين من ناحية التخطيط والتكوين المعماري، جاء النمط الأول عبارة عن مجموعة من الحوانيت تطل على ساحة مكشوفة في الوسط وظهرها إلى الخارج، وتعلو هذه الحوانيت وحدات سكنية كانت تؤجر لمن يرغب في السكن[١]، وقد تنوعت المنشآت التي سارت على هذا النمط من التخطيط وعرفت هذه العمائر بعدة مسميات منها الخانات والفنادق والقياسر والوكالات والسماسر[٢]، أما النمط الثاني في تخطيط وتكوين عمارة السوق فكان عبارة عن مجموعة حوانيت متراصة على جانبى الشارع الرئيس والشوارع الفرعية المتسعة وارتبط وجود هذا النمط بالشوارع النافذة، ويمكننا القول أن النمط الأول في المنشآت التجارية كان الأكثر تطورًا في التكوين المعماري وأسهم في ذلك التجارة في مجالات الصناعة، فقد كان التوجيه أن يجعل لأهل كل صنعة منهم سوق يختص بهم[٣].

(١-٤) توزيع الأسواق في المدن الإسلامية :

حددت معايير ضابطة لتنظيم توزيع الأسواق لمنع الضرر لأصحاب الأسواق أو للعامة من سكان المدينة[٤]، وقد انعكس توزيع الأسواق والحوانيت على مسميات الأحياء في بعض المدن الإسلامية التي سُميت أحياؤها بأسماء نوعيات منتجاتها ومتاجرها ،كالنحاسين والصاغة والفحامين والشماعين والسراجين والسكاجين؛ ونظراً لتشابه أسواق المدن الإسلامية وأتباعها القواعد نفسها بصفة عامة، فقد تكررت مسميات الأسواق فيها ،كالقاهرة ودمشق وتونس وبغداد وحلب والقيروان وفاس وقرطبة.

---

(١) السمهودي، المرجع السابق، ج٢، ص ص٧٥٢–٧٥٣، اليعقوبي، المرجع السابق، ص ٧١ البلازذي، فتوح البلدان، ص٢٨٤ ؛ ماسينيون، لويس ،خطط الكوفة، ترجمة تقى المصعبى، صيدا، ١٩٣٩ ،ص ٢٢

(٢) الحداد، محمد حمزة اسماعيل، العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية، الخليج العربي للطباعة والنشر ٢٠٠٩، ص١١٩.

(٣) الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مصر: ١٩٤٦، ص ١٠.

(٤) الشيرزي، المرجع السابق، ص١١؛ ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص٩٩؛ الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المنهاج، جدة ١٤٣٢ هـ، ج٢، ص٢٩٧ المقريزي، تقي الدين أحمد، المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار، ٢ج، ص ٩٤، ١٠٦، الشيرزي، ص ١٧، ص ١١٦ .

٢– أسواق مدينة تونس في العصر العثماني :

لم يشذَ تخطيط مدينة تونس عن نمط المدن الإسلامية المخططة عقب ظهور الإسلام، والتي روعي أن يتوسط المسجد الجامع المدينة، ومن ثم ينطلق بقية التخطيط حوله، فكانت أول المنشآت التي تحيط بالجامع هي الأسواق، وأثرها بُنيت الدور السكنية، وفي آخر المطاف الأسوار (شكل–١،٢)، ومنذ إنشاء الجامع الأعظم بمدينة تونس خُطت من حوله الأسواق[١]، وتحكمت اعتبارات متعددة في ترسيخ طابع مميز لأسواق مدينة تونس يمكننا أن نطلق عليها صفة المهن النظيفة أو النبيلة"، أما المن الملوثة مثل الصباغين والفحامين، فقد استقرت قرب باب الجزيرة، والحدادين قرب الباب الجديد وحي باب السويقة، وانحدرت بعض المهن إلى أطراف المدينة أو خارج أسوارها.

(٢–١) أسواق مدينة تونس من الفتح العربي حتى القرن السابع الهجري :

شَحَتَ المصادر التاريخية بالمعلومات حول نشأة الأسواق في مدينة تونس، و أمدنا **أبوالعرب** في طبقاته بأول نص حول وجود الأسواق بداية القرن الثالث الهجري، مشيرًا إلى وجود صناع متخصصين في النسيج قرب الجامع الأعظم[٢]، كذلك ما قام به الولي الصالح محرز بن خلف[٣] من إضافات في سوق "السويقة"[٤] بالربض الشمالي للمدينة خلال القرن ٤هـ/١٠م مما يدل على وجود السوق قبل تلك الفترة الزمنية، وربما انتقلت الأسواق إلى أطراف المدينة بداية من العهد الأغلبي؟

---

[١] عن أهمية السوق في التشريع والفقه الإسلامي راجع؛ الحبيشى ،أبو عبدالله محمد، البركة في فضل السعي والحركة، مطبعة الفجالة الجديدة، مصر (د.ت)، ص ٢٦

[٢] أبو العرب ،محمد بن أحمد، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق:على الشابي – تونس :١٩٦٨م ، ص٢٢٦

[٣] الفارسي ،أبو الطاهر مناقب محرز بن خلف، إصدار تونس: ١٩٥٩

[٤] تصغير السوق ومعناها التجارة، ابن منظور : لسان العرب، بيروت : ١٩٦٨ ،ج١٢ ،ص ٣٢؛الجوهري ،إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، القاهرة : ١٩٥٦ ، ج٤، ص١٤٩٨ .

ومن أقدم الأسواق داخل المدينة العتيقة حول الجامع الأعظم سوق الفكه (سوق الفواكه المجففة والمكسرات) وموصغه في مواجهة الباب الشرقي للجامع الأعظم، ولايزال يقوم بوظيفته إلى الآن، وتعد أسواق المدينة القديمة مركزًا أساسيًّا لاستقطاب التجارة ومجالًا حيويًّا للنشاط الاقتصادي رغم تحول بعض الأسواق إلى الربضين الشمالي والجنوبي[٥]، فلم تفقد السوق المحيطة بالجامع الأعظم أهميتها.

وارتبطت تسمية كل سوق بالبضاعة التي تشتهر ببيعها، كذلك صنعت بعض البضائع المعروضة في الأسواق في عين المكان كأسواق البلاغجية والنحاسين، والسراجين، والصاغة وقسم من أعمال الشاسيه، وصناعة الجلد، وبعض صناعات النسيج التي لا يتطلب أعدادها الآت ضخمة أو مساحات واسعة، وكانت تصنع مباشرة من الحرفي ومساعديه في الحانوت نفسه، فلم يكن الغرض من إنشاء الأسواق تجاريًّا بحتاً، إنما كان وجود الصناع أمرًا مهمًّا، وظهرت بوضوح في صناعة الشموع والعطور والحرير والأحذية والسروج والكتبيين، وتلى ذلك جمع كل فئة من الحرفيين أو التجار ضمن تجمعات، واختص كل سوق في نوع من الصناعات دون غيرها.

(٢-٢) أسواق مدينة تونس قبيل العصر العثماني :

اتخذت مدينة تونس شكلها الحالي خلال فترة الحكم الحفصي ٧هـ/١٣م، وتشير المصادر إلى أن الأسواق استقرت بهيئتها ومظهرها الحالي خلال عهد أبي زكريا الأول [١] ، حيث عُني بتطوير الأسواق، ووسع فيها بالإضافات والتحسينات وصار معلوم متى أسُس كل قسم من أقسام السوق ونوعيته وتخصصه، وتلا ذلك مرحلة تراجع اقتصادية صناعية وتجارية لغزو الإسبان مدينة تونس ٩٤١هـ/١٥٣٥م، دخلت آنذاك مدينة تونس من سكانها[٢] وتراجعت الأسواق وتكرر الأمر

---

[٥] أسواق باب الفلة وباب الجزيرة والحلفاوين وسوق سيدى محرز أما اسواق القرانة والطويلة الأمالحية فلم تختص في تجارة خاصة، انظر؛ السعداوي(أحمد)، تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي إلى الإصلاح؛ العمارة والفنون في العصر الحديث، ج٢، تونس: نسخة إلكترونية، ص ٢٥٣ .

[١] ابن الشماع، أحمد، الأدلة البينة النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: عثمان الكحاك، تونس: ١٩٦٣م، ص٥٧ .

[٢] ابن أبى الضياف، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،تحقيق لجنة من وزارة الشئون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس: ١٩٦٣– ١٩٦٦ – ج٢، ص١٣؛ الوزير السراج، أبو عبد الله محمد، الحلل السندسية في الاخبار التونسية، ج١، مج ٣، ص ١٠٩٥.

٩٨٠هـ/١٥٧٣م[٣] وأغلقت المتاجر أبوابها وحل الخراب ببعض الأسواق[٤]. حتى بدأت تونس في الاستقرار بداية من عهد عثمان داي[٥]، ومن بعده يوسف داي[٦] .

(٢–٣) التكوين المعماري لأسواق مدينة تونس في العصر العثماني:

اقترن إنشاء الأسواق بسياسة دايات وبايات تونس ورؤيتهم حول ربط الاستقرار السياسي بتنمية الأنشطة الاقتصادية والتجارية اعتمادًا على عائدات الأحباس، وأدمجت الأسواق في إطار مشاريع معمارية متكاملة، إذ تحبس ريع كراء حوانيت الأسواق، والفنادق، الخانات والحمامات المتواجدة في الأسواق للإنفاق على أوجه الصرف في الجوامع والمدارس والتُرب مما يدعم الحياة الدينية والتعليمية، بالإضافة لإسهامات الأسواق في تنشيط الحرف والصناعات، فأنشئ يوسف داي سوق الترك[١] (لوحة–١) والبركة[٢] (لوحة–٢) والبشامقية[٣](لوحة–٣)، واصُطفت الحوانيت على جانبي

---

[٣] ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ج٢، ص ١٨ .

[٤] المرابطي (ابن أبي لحية المنتصر): نور الأرماش في مناقب أبي الغيث القشاش مخطوط محفوظ بدار الكتب الوطنية تونس، رقم ١٦٤٠٨، والمعهد الوطني للآثار والفنون نسخة من الأصل برقم ٦٥٠ .

[٥] من كبار الدايات الأوائل ١٠٠٣– ١٠١٩هـ / ١٥٩٤ – ١٦١٠م، أداريا حاذقاً، مسك بعنان السلطة برباطة جأش وأزاح منافسية من أجل نفاذ كلمته، شرع في ضبط دواخل البلاد نجهل ماضيه قبل قدومه لتونس إلا إنه من الثابت انخراطه في سلك الانكشارية، وصفه الرحالة دى براف ١٦٠٦م بقوله "متوسط القامة، بدين، قوى البنية رفيع الهمة، متعالى الهيبة، نظرته حادة، محياه ملي، ورغم مكانته فالمعلومات حول شخصيته قليلة متضاربة وتوجد تربته بزنقة المدرسة الشماعية للاستزادة: توفيق بشروش، موسوعة مدينة تونس، ص ٣٢٤ – ٣٢٥، المستنصر بن يحيى المرابطي، مرجع سابق؛ حسين خوجه : ذيل بشائر الإيمان فى فوحات ال عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعمورى، تونس : ١٩٧٥، ص ٩٢ .

[٦] تولى الحكم ١٠١٩هـ/١٦٠١م واستمر ثمانية وعشرين عامًا وجه اهتمامه للنواحي الأقتصادية والعمرانية والأمنية عُرف بالأمير الصالح أبو الخيرات، اتسم عهده بالأزهار بنى أربعة أسواق ومجموعة معمارية، ولقب بسلطان تونس ابن أبي دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية، ص ص ١٩٣ – ١٩٥، ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٣ حموده بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، المخطوط، دار الكتب الوطنية برقم ١٧٩٤، ورقه ٢٤٥.

[١] جمع تركه وهو مايتركه الميت، كانت تخاط به بعض الملبوس التونسي كالحبايب، والفرملة، الصدرية المنتان ابن ابي دينار: المؤنس، ص ٢٠٥

[٢] خُصص لبيع العبيد السود، ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص٢٠٦

الشوارع بطول الأسواق مما أضفي طابعًا معماريًّا متشبعًا بنظام دقيق (شكل–٢)، وامتد سوق الترك بطول مائة متر واتساع ستة أمتار ليتصل بأسواق الجامع الأعظم كسوق القماش (الرمادرة) والعطارين والكبابجية[٤] والعبيد، وضم هذا الشريان مايقرب من مائة حانوت[٥] واستكمالا لهذه الأسواق أنشئ حموده باشا المرادى[٦] سوق الصاغة بحوانيته وورشه ومستودعاته اللازمة لهذه الحرفة، وسوق الربع المكون من سبعة عشر حانوتاً، وخصص لبيع الثياب للأثرياء من نساء الأتراك، وامتد ليصل لسوق القماش، كذلك أنشئ سوق الباي المشرف على ساحة القصبة (شكل٣)، وهيأ حفيده محمد باي أسواق سيدى محرز والحوت والقرانة والشاشية (شكل–٤) وشيد على باشا سوق المر بربض باب الجزيرة[٧]، ونقل على باي سوق الدباغين من داخل المدينة إلى خارج باب البحر[٨]، وبنى يوسف صاحب الطابع السوق الجديد بالحلفاوين[٩] (لوحات، ٤– ٥) وكان عبارة عن طرق مسقوفة بالأخشاب أو مغطاة باقبية طويلة يتخللها فتحات للتهوية والإنارة، أو مكشوفة وتصطف على جوانبها الحوانيت الصغيرة نسبيًّا، حيث تتراوح مساحة الحانوت نحو أربع

---

[٣] جمع البشامقى : صانع الحذاء الرهيف الذي يلبسه الفقهاء والقضاة والأئمة في العصر العثماني.

[٤] لصنع كبة الخيط والقيطن وحرج الجبّه وهي من الألبسة التقليدية، وقد اختص اليهود في هذه الصنعة.

[٥] Sebeg (P.); Tunis au xviiie siècle, une cite barbaresque au temps de la course, l'Harmattan, paris, 1989, P.156.

[٦] مؤسس الدولة المرادية كان أبوه مملوكاً وتولى أمر البلاد بعد أبيه، كان خبيرًا بشئون الحكم والإدارة واستحوذ على المنصب بجدارة واستحقاق للاستزادة: ابن أبي دينار، المؤنس، ٢١٥؛ابن ابي الضياف، ج٢،ص ص١٦٩–١٧٠.

[٧] أحمد السعداوي ، مرجع سابق ،ج ٢، ص٢٥٢.

[٨] Raymond (A.),Le deplacement des tanneries, 1977, P. 192.200

[٩] اشتمل على ٥٣ حانوت وله بابان: شمالي وجنوبي وثيقة أحباس المجموعة المعمارية ليوسف صاحب الطابع من مخلفات المرحوم محمد بن الخوجة مستشار الحكومة التونسية وانتقلت لرصيد الحكومة تحت رقم ٢١٧٦٠منقولة عن الأصل ومكتوبة في أوراق يومية مؤرخة ٢ محرم ١٣٠٤ هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨٨٦م .

أذرع في مثلها، ومستوى أراضيها مرتفعة عن منسوب أرض الطريق في البناء نحو ذراع، وبعضها أبوابه من خشب غير منحوت (مصُنع) وهى قطع مفرقة يضع صاحبها لوحة حذو أخرى إلى أن يمتلىء عرض الباب فيجعل قفلا على الوسطى من تلك الألواح يمسكها بالعواضد في الجزء التي تدخل منها الألواح ويكون المسك بواسطة حلق صغيرة بعضها من الألواح وبعضها في العتبة بالمخالفة في الوضع، ويدخل القفل في تلك الحلق ثم يقفل بالمفتاح[١]، ومن الناحية التاريخية، فقد شاع وجود هذا النمط من التكوين المعماري للأسواق في العصر البيزنطي[٢].

(٢-٤) الرقابة على الأسواق بمدينة تونس، والبيع بالدلالة:

خضعت الأسواق لإشراف المحتسب ومن يعاونه من الأمناء المتخصصين[٣] في مراقبة كل تجارة والذين هم نقباء المهن، ووجدت لهم مقار بالقرب من الأسواق وكان يستنجد بهم لردع المخالفين، ولم يكن يعين الأمين من قبل البايات، بل كان ينتخبه أهل الصنعة ويراقب مباشرة من شيخ المدينة، وكانت خطة الأمين في بعض الحالات وراثية، وكان من يتولى هذه الخطة يعد في قمة سلم الحرفيين ومن بين أثرياء المدينة، وعندما دخلت مؤسسة الأمناء طي الإهمال، فقدت الأسواق تماسكها والبضاعة جودتها، هذا وقد عرف في العديد من الأسواق التونسية البيع بالدلالة؛ كسوق الترك، وسوق العصر بالحلفاوين وباب بنات، وسوق الكتبيين، و كثر البيع بالدلالة[٤] في سوق اللفة (لوحة –٦) ولم يبقَ من العدد الكبير للدلالة بهذا السوق إلا شخص واحد أصيل في جزيرة جربة وفي عام ٢٠٠٢ كان عمره قد تجاوز الخمس والسبعين عامًا ويمارس المهنة بالسوق صباحًا فقط.

---

[١] محمد بيرم الخامس، صفوة الاعتبار، ٢ج ،ص ص١٣٣-١٣٤ .

[٢] Hathoul,op. cit.P . 72

[٣] Ridha Tlili, "De la coporation artisanale au syndicalisme Patronal en tunise" Tunis : 1978, P.P. 54-72

[٤] Lallemand(Ch.), Tunis et ses environs,Paris,1890, P. 147.

محمد الباجي بن مامي، أسواق مدينة تونس، افريقية، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية المعهد الوطني للتراث، عدد ١٢، ١٩٩٨م ، ص٥٠

وتُعد أسواق الشواشية، والعطارين، البلاغجية، الصوف والجبَّه، القماش، النساء، الربع، اللفة، السكاجين، السراجين (لوحة–٧)، البلاط، السلاح، الكتبيين، الفكة البشامقية، الترك، البركة، الباي، الكبابجية، النحاس أهم أسواق مدينة تونس خلال القرنين ١٧، ١٨م وقد خُصص لكل حرفة مجال وانتظمت الأسواق من المركز في اتجاه الأطراف وفق تنظيم يمنع الضرر.

٣– كتابات الرحالة الأوروبيين عن أسواق مدينة تونس:

(١–٣) اهتمام الرحالة الأوروبيين ودوافعهم :

بدأ اهتمام الرحالة الأوروبيين بالشمال الأفريقي في القرن ٩هـ/ ١٥م ،فعقب الحروب الصليبية كان لابد للأوروبيين استكشاف بلاد المسلمين مدفوعين بعدد من الأسباب السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولايمكن إنكار وجود رحالة كانت أهدافهم فضول معرفي؛ ورغبة في التعرف على تفاصيل الحياة الاجتماعية في المغرب الإسلامي بشكل عام والبلاد التونسية بشكل خاص، ولكن لايمكننا كذلك تجاهل وجود غايات استعمارية خلال تلك الفترة، هذا ونالت أسواق مدينة تونس لغيرها من أسواق مدن المغرب الإسلامي اهتمام الرحالة الأوروبيين، وعُدت كتاباتهم وأشاراتهم عن أسواق المدينة جد مهمة لما احتوت عليه من أوصاف للأحوال العامة ؛كنظافة الأسواق وحمايتها وكيفية حزن البضائع وأنواع التجارة والبيع والشراء والطرق التي تسلكها القوافل، وتخصص الأسواق في تجارة بعينها أو صنعة بذاتها ومما شك حول أهمية مدوناتهم العلمية ومنهجيتها الأمر الذى يؤكد الباعث العلمي لرحلاتهم وتركيزهم على الجغرافيا الأقتصادية للبلاد التونسية.

(٢–٣) ملاحظات الرحالة الأوروبيين حول أسواق مدينة تونس:

لم تفيدنا المصادر العربية بشكل واضح وصريح عما كان المسئول عن إصلاح الأسواق وترميمها ونظافتها، إلا إن الرحالة "**Adorne**" حدثنا عن أن أسواق مدينة تونس عرفت بأنظف الأسواق العربية خلال القرون الماضية مؤكدًا على أنه وجد عُمال مكلفين بالسهر على كنس السوق وجمع الفضلات وإزالة الأتربة في المساء بعد إغلاق المتاجر، وكان يتم تخزين البضائع في شارع السوق حتى تبقى طازجة[١]..

[١] R. Brunshwig, Deux recits de voyagesen Afrique du nord au xve siècle, Paris : 2001, P. 203

كذلك رصد الرحالة "**Lallemand**"أن الأسواق تفتح أبوابها باكرًا لتكون القلب النابض للمدينة ويهجرونها أصحابها مساء عند غسق الليل، ويبقى بها الحراس رفقة كلابهم الأوفياء، فيحولون دون وقوع أي مكروه من سرقة أو سطو، وكذلك يفطنون لأي حادث عارض كالحرائق[٢]، كذلك أشار كل من "**Leon ،Adorne ،l'Africain**" إلى جمع كل من الحرفيين أو التجار ضمن تجمعات واختصاص كل سوق في نوع من الصناعات دون غيرها[٣]، ونوه "**Lallemand**" إلى وجود مشرف لكل سوق للمتابعة يتم اختياره من زملاء[١] مهنته ولا يعين من قبل الباي، ولاحظ انتشار البيع بالدلالة في أسواق الترك والعصر وباب بنات[٢] أما الرحالة "**Fleury، Michel Leon، Grenville**"، فقد ألقت مدونهم الضوء على صناعة وسوق الشاشية أجل الصناعات التي اشتهرت بها حاضرة تونس متتبعين دخول صناعة الشاشية إلى حاضرة تونس قادمة من الأندلس عبر هجرات موريسكية بلغ عددها في ١٠١٧هـ / ١٦٠٨م حوالي ثمانين ألف نسمة، وجعلوا من هذه المهنة أهم الصناعات في البلاد التونسية، واكتسبت منها بعض العائلات التونسية ثروات طائلة[٣]، والمكانة الاجتماعية المحققة للمعلم في سوق الشواشية والتي لامثيل لها بين التجار، وأنه في قمة الهرم الاجتماعي وأن له ختمه الخاص الذي يسمى النيشان، ومن بين هؤلاء عائلات (كالسنوسي والرصاع وابن مامي)،

---

(٢). Lallemand(Ch.), Op.cit, P.39

(٣)R. Brunschwig, Adone,Op,cit, P. 186

= Leon l'African, Description de l'Afrique, edit. Scherge, Paris, 1895, T. III, P. 187

(١)Lallemand,(Ch.),Op,cit, P. 146

(٢) Ibid, P. 147

(٣) Fleury, L'industrie tunisienne des Sasiyas, in Revue du commerce et de l'Industrie, Paris, 1895, P. 73.

وقدم "**Michel Leon**" تسلسل صناعة الشاشية، مبتدأ باستخدام الزيت للصوف، ثم يتولى العمل "القرداش"، وهو الشخص المختص في التقريش ويعينه في عمله الزلاق[٤]، بعد ذلك يأتى دور النسوة التي تسمى بالكباسه[٥] أي الشغل بالأبر ثم بطان طبرية[٦]، وتسمى هذه الخطوة بالتبطين أو التلبيد بدواليب البطان، وكانت توجد غرف بها صناديق للغسيل تتخذ شكل مثلث أو ملولب، وتوضع فيها الشواشى وتملأ بالماء الساخن المخلوط للغسيل تتخذ شكل مثلث أو ملولب وتوضع فيها الشواشى وتملا بالماء الساخن المخلوط بالصابون الأخضر المذاب، وينحدر عليها الماصور أو المعصار، فيضغطها ويعصرها، وتتبلد الشاشية وتأخذ حجمها الأخير قبل أن يتم المرور على عملية القردشة بالكرضون[٧] تليها الصباغة[٨] وآخر مراحل صناعة الشاشية، هى وضع المعلم ختمه عليها، وترص في المتجر على ألواح متساوية معلقة على الجدران يطلق عليها العساكر، وكانت أغلب المتاجر تحتوى في أعلاها على سده لوضع الشواشي، وفي آن واحد الكرضون وأسفل السدة مقصورة المعلم تحُفها يميناً ويساراً مصاطب يسميها أهل الصنعة "شينتو"، وكان يسمى رئيس الصناع "كابيساباسكو" أي كبير الأسطاوات، وهو الذي يتفقد إتقان الصناعة[٩]

ويؤكد "**Michel Leon**" "على أن الشاشية التونسية كانت تصدر للعديد من الدول الأفريقية وتركيا[١] وعُدت من أهم الصناعات التونسية [٢] بعد الحرير والنسيج في العصر الحفصي وبلغ عدد

---

[٤] اشتهر بدو ورغمّة بهذا العمل .

[٥] اشتهرت نساء أريانة بهذا العمل .

[٦] غسل الشاشيه في بلدة الجديدة لوقوعها، على أهم أودية البلاد وادى مجردة وأستخدم أندفاع الماء لتدير دواليب غسيل البطان .

[٧] تخصصت بها بلدة العالية .

[٨] كانت لاتتم الأ بزغوان حتى ١٨٩٥ تم بناء مصنع بتونس قرب نهج دار الجلد .

[٩] Leon Michel, Tunis, Paris, 1883, (deuxieme edition) P. 97

[١]Leon Michel ,Op,cit, P. 97.

(٢) Lallemand (Ch.) , Op,cit, P.118.

العاملين بصناعة الشاشية اكثر من ٢٠٠٠٠ عامل بهذه المهنة[٣]، مما أدى إلى أنتعاش الأقتصاد التونسي نتيجة لأهمية الصناعة وتضاعف الثروات وبلغت تجارة الشاشية درجة من الأنتشار حتى أنها تجاوزت حدود السوق المخصصة لها، فأصبحت تُباع في نهج سيدى بن عروس ونهج القصبة وبعض الأسواق الأخرى، أما سوق العطارين والذي يمثل جزءًا آمنًا من الممر الرئيس الرابط بين القصبة وباب البحر وملاصق للجامع الأعظم من الجهة الشمالية ذكره الرحالة **آدورن** في ٨٨٥هـ /١٤٨٠م بقوله تصُنع فيه عطور جيدة لايوجد مثيل لها في أي مكان آخر، ويتم انتاجها من زهور وأعشاب مختلفة يحتفظ بها تجار الرياحين في حوانيتهم داخل قنينات مزخرفة ومزدانه بالألوان وتمتاز بعنقها الضيق ورقبتها الطويلة، وأكد على أن أهل تونس يعشقون العطور الجيدة ويفضلون منها ذات الرائحة القوية النفاذة[٤].

ويشير "**Leon L'Africain**" بعد نصف قرن عن أهمية سوق العطارين لنساء تونس مما جعل تاجر العطور هو آخر من يغلق أبواب متجرة بالسوق للإقبال عليه بصفة متواصلة[٥]، ونوه" **Filippi Conte**" في ١٨٣٠م إلى أعجابه بمصانع العطور خاصة التي نستخرج فيها الرياحين كالنسرين الذي أتى به الأندلسيون واعتبره أهل تونس أرقى العطور، وأكد "**Fillippi**" على أن التونسيين برعوا بصفة مطلقة في تقطير العديد من العطور الأخرى وأن الكمية المستخرجه التي توفرها الزهور التونسية تعتبر ضعف الكمية المستخرجه من نفس النوع في أوروبا[٦]، وأحصى "**Lallemand**"عدد متاجر العطور بالسوق بثمانين حانوتاً في ١٨٩٠م[٧]،

---

[٣]Grinvile T. Temple (Sir), Excursion in the Mediterranean Alger and Tunis, London, 1835, P.24.

[٤]R. Brunschving, Deux recits, Adorne, Op,cit, PP 202 – 203.

[٥]Leon L'African, T.III,Op.cit, P. 148.

[٦]Fillippi et calligaris (1788–1829–1834), Paris , P.98.

[٧]Ch. Lallemand, Op–Cit, P. 103.

واعتبر "**Michel Leon**" تجار العطور من أثرى الطبقات الاجتماعية، ووصفهم من أعيان البلد لما كانت تدره عليهم تجارتهم من أرباح طائلة[٨]. وظهر ثراهم بوضوح في اختيارهم لملابسهم بعناية[٩]،

ومن ملاحظات "**Lallemand**" أن السوق خُصص للمتاجر فقط وليس لصناعة العطور، وأن الورش المخصصة لتجهيز العطور متواجدة في نابل والحمامات[١] ومن خصائص سوق العطارين صغر الحوانيت خاصة تلك الموجودة بجدار الجامع الأعظم بالإضافة إلى وجود الحاجيات الخاصة بالأفراح في نفس السوق كالحناء والشموع والمياه المقطرة ومختلف أنواع البخور والعنبر والعود والجاوي والوشق والداد واللوبان والسواك والكُحل[٢]

وقارن"**Lallemand**" بين تغطيات الأسواق وبين طريقة تغطية سوق العطارين بقوله أن السوق كانت مسقوفة في بداية الأمر بالخشب ثم أعيد تغطيتها بالطابوق "الآجر" ووصف أقبية الأسواق بأحد خصائص العمارة التونسية[٣].

أما الرحالة القديس "**Gervais**"، أكد على أن صناعة البُلغة والكنترة أهم الصناعات في ١٧٥٣م[٤]، وصدق "**Michel**" في ١٨٦٧م على ما ذكره "**Gervais**" بقوله أن البلاغجية يشكل سوقاً لانهاية له ولايمكن إحصاء عدد المشتغلين في هذه المهنة، حيث تجاوزت متاجر البلاغجية السوق المخصص لها وموجودة في العديد من أنحاء مدينة تونس[٥] واحتوت هذه الصنعه على أربع مجموعات الأولى صناعة "البشمق" وانقرضت تمامًا" والثانية "الشبرلة" أحذية للنساء تصنع من جلد المعز، وهى إحدى التأثيرات الأندلسية وانقرضت هي الأخرى، أما الثالثة، فهي "الكنترة، وعُرفت بالكندرة وتصنع بسوق الكناترية، والرابعة صناعة البلغة، وهي الأكثر انتشارًا بين عامة الناس وتصنع بجميع أنواع الجلد (الخروف، البقر، المعز، الناقة).

---

(٨) Leon Michel, op. cit P. 102.
(٩)Ibid, P. 103.
(١) Ibid , P. 104.
(٢)Ibid , P. 103.
(٣)Ibid , P. 100 ; Saint Gervais (Bermard le Boiger), Memoure et correspondence du archal de catinat , P. 60.
(٤)L'eon Michel, Op. cit, P. 99.
(٥)Leon L'Africain, Op . cit, P. 138.

كذلك من الصناعات التي استرعت انتباه الرحالة صناعة الحرير والتي تُعد من أهم الصناعات التي عرفت بها مدينة تونس، وكان لها رواج عظيم داخل البلاد وخارجها ويفيدنا" **Leon L'Africanin**" أن أغلب سكان مدينة تونس كانوا مختصين في صناعة النسيج ووصفه بأنه جيد ويباع في العديد من البلدان الأخرى، ويؤكد "**Lallemand** "على أن عدد الحرارية كان من الأهمية بمكان أن بلغ ١٢٠٠ معلم، و٦٠٠٠ عامل في هذا الميدان في ١٨٩٠م وقدم وصفًا لبعض الثياب بقوله "ومن بين ماكان يصنع : "التقارط" الحرير الملونة وكذلك التقارط" الشعالة وهى حزام من حرير مزركش يحتوى على مربعات ملونة، إضافة إلى أحزمة الرجال والفوطة الحرير بأنواعها".[٦]

أما "**Michel**" أكد على أن أهم مايصنع هو "السفساري" [١] الذي لبسته النسوة، وكان أروج الصناعات ويجلب الحرير لصنعته من مدينة "ليون" الفرنسية ومن "قرنة" بإيطاليا

وأشار"**Lallemand**" إلى أن عدد فنادق الحرير تقلص إلى ثلاثة فقط بعدما كانت تعج بها أسواق، وأنهج المدينة العتيقة خاصة قرب الحلفاوين و باب سويقه بالربض الشمالي لمدينة تونس[٢] وهم فندق الدولاتي والوردة والطويل والطاحونة.

واشتهر سوق اللفة بنسج الصوف والذى برع فيه أهل الجنوب، وعرف أول السوق من ناحية الجامع الأعظم بسوق الجربة نسبة إلى أهالي جزيرة جربة الذين اشتهروا بحذقهم للتجارة بصفة عامة[٣] ومثله كأغلب الأسواق له أبواب تغلق بعد اغلاق الحوانيت ويبقى عليها حراس لحمايتها،

أما الرحالة الفرنسي "**Dunant**" والذى زارتونس ١٨٥٨م أبدى إعجابه الشديد بصنع السروج في سوق السراجين بقوله خاصة عند تجميع الذهب والفضة والحرير على القماش أو الجلد لصنع سرج بديع مع وضع طبقات من الفضة التي يطلق عليها فضة "ضرب مطارق" طبقًا لما أورده **دونان** وأحصى عدد المستغلين في صنع السروج في ١٨٥٨م، حيث بلغ عددهم مائة وخمسين سراجًا إضافة إلى أكثر من خمسمائة صانع ينتمون إلى عائلات ميسورة الحال في المجتمع التونسي"[٤]،

---

[٦]Ibid , P. 110.

[١]Leon Michel, op. cit, PP. 95-96.

[٢]Lallemand (Ch.), op. cit P. 112.

[٣]Ibid , P. 98.

[٤]JH. Dunant, Notes su la Regence de Tunis, Greneve, 1858, P.33.

وتحدث الرحالة "**Michel** " ١٨٦٠م عن تخصص بعض الفتيان في خياطة ونقش الجلد المخصص لصنع السروج[٥] مما يدل على أن صفة السراجين كانت تعد من الأعمال الراقية.

ونسب" **Lallemand** "سوق البلاط لفرش أرضية السوق بالبلاط، وهو من الأسواق القديمة التي تقود للفترة الأغلبية، ولم يكن مخصصًا لبيع سلعة بعينها إلا إن أكثر حوانيت السوق تبيع الأعشاب الطبيعية والعقاقير، وأرتبط بسوق العطارين إذا كان تجار العطور يشترون العديد من أنواع الأعشاب من سوق البلاط لصنع العطور والرياحين، أما سوق السلاح، فكان منصب أمين السوق يستثنى من الانتخاب، ويعين مباشرة من قبل أمير البلاد آمين سوق السلاح، لكن كان ذلك كمن يعين قائدا عسكريًّا لايوجد وراءه جند إذا كان في ١٨٦٠م اثنا عشر معلماً، ولم يبق منهم في ١٨٩٢م سوى واحد فقط، نظراً لأن البندقية المحلية الطويلة الشكل التي كان يطلق عليها المكحلة فقدت أهميتها أمام البنادق القادمة من بلجيكا وفرنسا لجودة نوعيتها وقلة سعرها بالمقارنة بالتي تصنع في تونس.

وهذا ما قد أفاد به الرحالة" **Michel**"، أما القرابيلا"، فهو السلاح الذي بقي في السوق، وهي نوعية أقل طويلا من البندقية، وتتسم فوهتها بالأتساع، ولاتستخدم في الحروب، وتعبا بكمية من البارود، ويصدر عن طلقاتها صوت صاخب وتستعمل في الافراح والمناسبات وكانت هذه البنادق تحُلى بخيوط من الفضة والذهب[١]. وقد أسهم في صنع هذه البندقية ثلاث مجموعات من الصناع الأول: يطلق عليه الجعايدية والثاني: الزنايدي والثالث: السرايري الأول يصنع الفوهة، الثاني يصنع زنود البنادق، والثالث سرير البندقية المصنوع من الخشب، وقد ظل لسوق السلاح أهمية قصوى من الفترة المرادية وحتى الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

وخلال تجول الرحالة "**Lallemand** " في مجموعة أسواق يوسف داي، علق على صناعة البشمق بقوله: "إن هذه الصناعة انقرضت، ولم يبقْ أي أثر للسوق المجانية لجامع يوسف داي وأحصى عشرين حرفي في هذه الصناعة ١٨٩٠م

---

[٥]Leon Michel, P. 98., Lallemand (Ch.), P.99

[١]Lallemand(Ch.),Op,cit, P. 100; Leon Michel, P 89; Leon Michel, PP. 100-101, Lallemand(Ch.),Op,cit, P.120 ; Lallemand(Ch.)Op,cit,, P. 128.

أما سوق البركة، والتي كانت مخصصة لبيع العبيد السود المجلوبين من نشاط القراصنة، والتي تحولت حوانيتها إلى بيع المصوغات والمجوهرات، وكان المشتغلين بهذه المهنة يهودًا، وأحصى عددهم بمائة وعشرين يهوديًّا(٢).

وحرص " **Adorne**" على التأكيد على تغطية سوق الترك بقبو طولي مشابه لأغلب الأقبية المسقفة للأسواق المحيطة بالجامع الأعظم(٣)، كذلك أفاد "**Lallemand** " بتخصص سوق الكبابجية في بيع الزرابي في ١٨٩٠ ورغم أن السوق موازية لسوق البركة إلا إنها لا تلقى نفس الإقبال من المشترين، لذلك تعد أقل الأسواق حركة؛ معللاً ذلك بموقعها بين سوق اللفة وسوق الترك لايلفت الانتباه إليها(٤).

وسُمي سوق نهج جامع الزيتونة خلال فترة الحماية الفرنسية بنهج الكنيسة لاحتوائها على كنيسة من ناحية باب البحر(٥)، ولم تحدد لنا المصادر على نحو من الدقة أنشطة هذه السوق، وهل كان لها اختصاصات متميزة ؟ وكل مانعرفه أن قسمًا منها كان مخصصًا خلال القرن ١١هـ/ ١٧م في صنع السلاح، وقد بقيت هذه السوق مركزًا مهمًّا ومتنوعًا للعديد من صفوف التجارة والصناعة التقليدية، وهي ظاهرة اختصت بها هذه السوق على مر التاريخ، فبعكس الأسواق الأخرى التي عرفت كل واحدة منها بنشاط أختص بها، يبدو أن نهج جامع الزيتونة، هي الوحيدة التي لم يكن لها اختصاص(١)

ويذكر "**Lallemand**" أنه لا يشعر بأنه في المدينة العتيقة إلا عند الوصول إلى الممر المسقوف(٢)، وبذلك نختم حديثنا عن ملاحظات الرحالة الأوروبيين عن أسواق مدينة تونس.

---

(٢)Lallemand(Ch.),Op,cit, P. 128.

(٣)R. Brunschwig, deux recits, Adorne, P.203.

(٤)Lallemand(Ch.),Op,cit, P. 129-130.

(٥) وهي المعروفة بكنيسة Sainte Croix، وهي أول كنيسة أنشئت بمدينة تونس وبنيت في ١٦٦٢م بمعرفة القسيس Jean Le vacher

(١)Lallemand(Ch.) Op.cit,, P. 100 .

(٢)Ibid , P. 39, P.100.

النتائـــج :

– أبرزت الدراسة اهتمام الرحالة الأوروبيين بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد التونسية.
– كل ملاحظاتهم الواردة أما عن أهم الصناعات وطرائق الصناعة أوخطواتها وأنواع المنتجات.
– شرح لبعض الصناعات وإحصاء بعدد العاملين في المهن والحرف والأدوات المستخدمه في هذه المهن
– تقديم وصف معماري للأسواق وأنماطها وطرق تغطيتها ومواد وعناصر البناء، ووصفاً مختصراً للحوانيت ومساحتها وطريقه تبليطها وتغطيتها ومحتواها .
– الإشارة إلى النظام الأمني والرقابي على الأسواق وكيفية اختيار نقباء المهن

التوصيات :

– ضرورة الحفاظ على منطقة الأسواق العتيقة بمدينة تونس ، والحرص على استمرار وجود الصناعات التقليدية والحرفية فيها.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا – المخطوطات والوثائق:

- المرابطي (المستنصر بن أبي لحية) : نور الأرماش في مناقب أبي الغيث القشاش، مخطوط محفوظ بدار الكتب الوطنية بتونس، برقم ١٦٤٠٨، ونسخة من الأصل في المعهد القومى للآثار والفنون.
- وثيقة أحباس المجموعة المعمارية ليوسف صاحب الطابع من مخلفات المرحوم محمد بن الخوجه مستشار الحكومة التونسية، وانتقلت لرصيد الحكومة التونسية تحت رقم ٢١٧٦٠ منقولة عن الأصل مكتوبة في أوراق يومية مؤرخة ٢محرم ١٣٠٤ هـ /٣٠ سبتمبر١٨٨٦م.

ثانيًا – المصادر العربية :

- ابن أبي دينار (محمد بن القاسم)، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق وتعليق: محمد شمام، (تونس : ١٩٦٧م)
- ابن أبى الربيع (شهاب الدين أحمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال، تحقيق : عارف أحمد عبد الغني – دار كنان للطباعة والنشر، (سورية : ١٩٩٦م).
- ابن أبى الضياف (أحمد)، أتحاف أهل الزمان لأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، (تونس ١٩٦٣ – ١٩٦٦م)
- ابن رسته (أحمد بن عمر)، الأعلاق النفسية، شركة نوابغ الفكر (القاهرة : ٢٠٠٩م)

- ابن زبالة (محمد بن الحسن)، أخبار المدينة، تحقيق: صلاح عبد العزيز سلامه، مركز بحوث ودراسات المدينة ط١، (المدينة : ٢٠٠٣م)
- ابن سيد الناس (محمد بن محمد)، عيون الأثر في فنون المغازي والسير، تحقيق : لجنة حفظ التراث (بيروت : ١٩٧١).
- ابن سيدة (أبى الحسن على)، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، (بيروت : ١٩٩٦م)
- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن عبد الله) فتوح مصر والمغرب، (القاهرة : ١٩٦١م).
- ابن الشماع (أبو عبد الله محمد)، الأدلة البينة النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: عثمان الكعاك، (تونس : ١٩٦٣م).
- ابن فارس (أحمد بن فارس)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٨م
- ابن ماجه (عبد الله محمد)، السنن، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية، (بيروت : د.ت)
- ابن منظور (محمد بن مرتضى)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج وآخرون – مطبعة حكومة الكويت، ط١، (الكويت : ٢٠٠١م)
- ابن منظور(محمد بن مكرم)، معجم لسان العرب، طبعة دار صادر (بيروت : ١٤١٤م)
- ابن الأخوة (محمد بن محمد)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق، محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة العامة المصرية للكتاب،(القاهرة:١٩٧٦م).
- البكري (عبيد الله أبى مصعب)، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، (الجزائر: ١٩٥٧م)
- البلاذري (أحمد بن يحيى)، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار النهضة المصرية (القاهرة : ١٩٥٧م)
- الجوهري (اسماعيل بن حماد)، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور، (القاهرة: ١٩٥٦م)
- الحبيشي (أبو عبد الله محمد)، البركة في فضل السعي والحركة، مطبعة الفجالة الجديدة، (مصر .د.ت).

- الخامس (محمد بيرم)، صفوة الأعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق : على بن الطاهر الشنوني، رياض المرزوقي عبدالحفيظ منصور، مج٢، طبعة وزارة الثقافة، (تونس: ١٩٩٩م).
- الزمخشري (نور الدين أبو الحسن) وفاء الوفاء بإخبار دار المصطفي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (بيروت : ١٩٧١م).
- الشيرزي (عبد الرحمن بن نصر) نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، (مصر: ١٩٤٦م)
- الغزالي (أبو حامد) إحياء علوم الدين، دار المنهاج، (جدة : ١٤٣٢هـ)
- القيراوني (أبو العرب) طبقات علماء إفريقية، (تونس : ١٩٦٨م)
- المطرزي (ناصر بن عبد السيد) المغرب في ترتيب المعرب، دار الكتاب العربي (بيروت: د.ت)
- المقريزي (تقي الدين أحمد)، المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار، جزأين، طبعة بولاق، (القاهرة : ١٢٧٠هـ)
- الأزرقي (محمد بن عبد الله)، أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله دهيش، ط٢ مكتبة الأسدي، (مكة المكرمة : ٢٠٠٨م).
- الأزهري (محمد بن أحمد)، تهذيب اللغة، تحقيق : محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ط١، (بيروت : ٢٠٠١م)
- الوزير السراج، (أبو عبد الله محمد الأندلسي)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق : محمد الحبيب الهيله (تونس : ١٩٧٠ – ١٩٧٣م).
- اليعقوبي (أبى العباس) البلدان في صدر الإسلام، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١ (عمان : ٢٠٠٩م).
- بحشل (أسهل بن سهل الرزاز الواسطى)، تاريخ واسط، ط١، كوركيس عواد، عالم الكتب، ١٩٨٦م

ثالثاً- المراجع العربية :

- الجنابي (كاظم)، تخطيط مدينة الكوفة عن المصادر التاريخية والأثرية، خاصة في العصر الأموي، الجامعة المستنصرية ، (بغداد : ١٩٩٧م)
- الحداد (محمد حمزة إسماعيل)، العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية، الخليج العربي للطباعة والنشر، (القاهرة : ٢٠٠٩م)

- الدوري (عبد العزيز)، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مركز دراسات الوحدة، ط١، (بيروت: ٢٠٠٥م)
- السامرائي (خليل)، محمد (ثائر حامد)، المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عهد البنوة، (الموصل : ١٩٨٤م)
- السعداوي (أحمد)، تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي إلى حركات الإصلاح، العمارة والفنون في العصر الحديث، ج٢، تونس "نسخة ألكترونية"
- الكبيسي (حمدان عبد المجيد)، أسواق العرب التجارية، دار الشئون الثقافية العامة، ط .١، (بغداد: ١٩٨٩م)
- بشروش (توفيق)، موسوعة مدينة تونس، موسوعة مدينة تونس، السلسلة التاريخية، عدد ٨، (تونس: ١٩٩٩م).
- بن مامي (محمد الباجي)، أسواق مدينة تونس، أفريقية، سلسلة الفنون والتقاليد الشعبية، المعهد الوطنى للتراث، عدد ١٢، (تونس : ١٩٩٨م)
- حجاب (محمد منير)، الدعاية السياسية في العصر الأموي، مؤسسة سعيد للطباعة، (مصر : ١٩٨٦م)
- خوجه (حسين) ذيل بشائر الإيمان في فتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم : الطاهر المعمورى ، (تونس ١٩٧٥م)
- سامي(عرفان)، نظريات العمارة العضوية، مؤسسة طباعة الألوان المتحدة، (القاهرة: ١٩٦٨م)
- عثمان (محمد عبد الستار)، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: ١٩٨٨م)
- مؤلفين (مجموعة)، البازار في التراث الإسلامي، مقالة مستله من دائرة معارف العالم الإسلامي مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، (نسخة الكترونية).

رابعاً – المراجع الأجنبية المعربة:

- الأفريقي (ليو)، وصف أفريقيا، جزآن، تعريب وتحقيق : محمد حجى، محمد الأخضر دار الغرب الإسلامي، (بيروت : ١٩٨٣م)
- فارب (بيتر)، بنو الأنسان، تعريب : زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، عدد ،٦٧، (الكويت : ١٩٨٣م)
- ماسينيون (لويس)، خطط الكوفة، تعريب : تقي المصعبي، (صيدا : ١٩٣٩م)

خامساً- المراجع الأجنبية :

- Brunschving (R.) Deux recits de voyagesen Afrique du nord au xve siècle, (Paris : 2001).
- Chalmeta (P.) Market in Islamic held city. Edited by R. Serjeant unesco, selected papers from the colloquium held at middle east center . F.O.O.S. (Canbridge, U.L. : 1976).
- Dumant (J.H.), Notes sur la Regence de Tunis, (Geneve: 1858).
- Fleury, L'industrie Tunisienne des Sasiyas, in Revue du Commerce et de L'Industrie, (Paris : 1895)
- Gevais (S.) Bernard le Bouger, Memoire et Correspondence du marechal de Catinat.
- Grinvile T. Temple (Sir), Excurision in the Mediterranean Algier and Tunis, (London : 1835).
- Hathloul (S.A), Tradition, Continuity and change in the physical Environment, the arab muslin city. PhD. Submitted to the department of architecture at M.I.T. 1981.
- Idriss (H.R.) P.U.F., Maher ben Khalaf, (Paris : 1959).
- Lallemand (Ch.), Tunis et ses environs, (Paris : 1890)
- L'Africain (L.), Description de L'Afique, edit. Scherger, (Paris : 1895).
- Michel (L.), Tunis, (Paris : 1883).
- Monchicourt (Ch.), Document Historiques sur la Tunisie, Relation indites : Nyssem, Filippe et Calligaris (1788-1829-1834) (Paris : 1929),.
- Raymond (A.), Le deplacement des tanneries a Alep, au Caire et a Tunis, dans R.H.M., 1977.
- Sebeg (P.), Tunis au xviiie siècle, une cite barbresque au temps de la cource, L' Harmattan, (Paris : 1989).
- Tlili (R.), De la coporation artisanale au syndicalisme Patronal en Tunise (Tunis : 1978).

الأشكال واللوحات

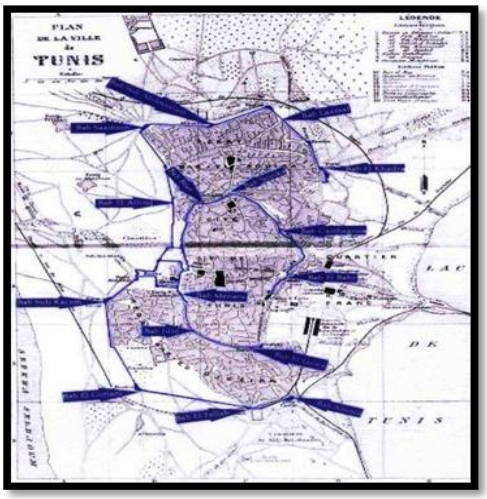

شكل–١تخطيط (مدينة تونس)

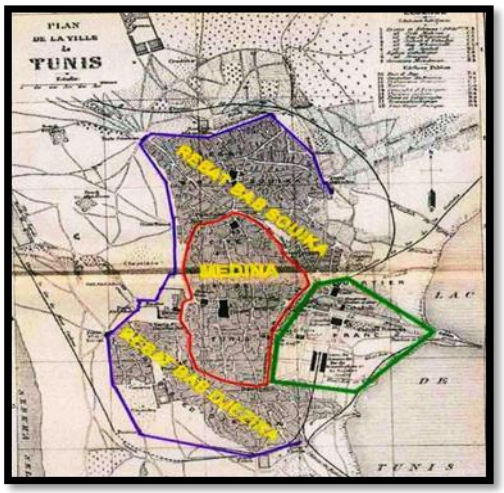

شكل–٢ منطقة الاسواق (عن كولان)

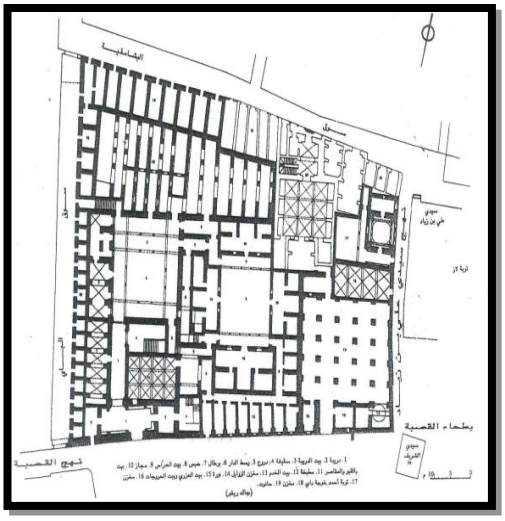

شكل– ٣ أ(سواق الباي)

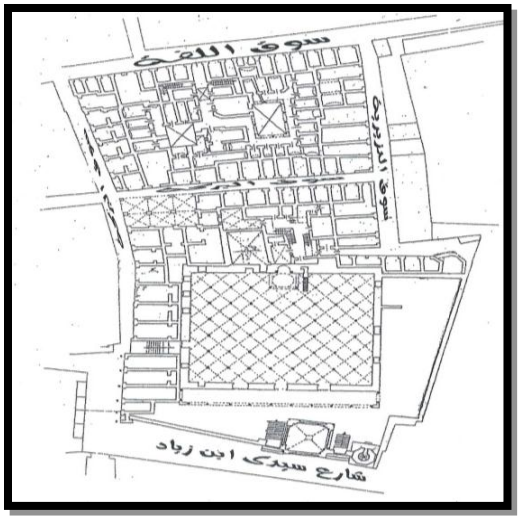

شكل –٤ (أسواق يوسف داى)

(عن مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية) (عن جمعية صيانة المدينة بتونس)

لوحه (١) سوق الترك

لوحه (٢) سوق البركة

لوحه (٣) سوق البشمق أسفل و حول جامع يوسف داى

(مجموعة صور وثائقية عن جمعية صيانة المدينة بتونس)

لوحه (٤) مدخل السوق الجديد

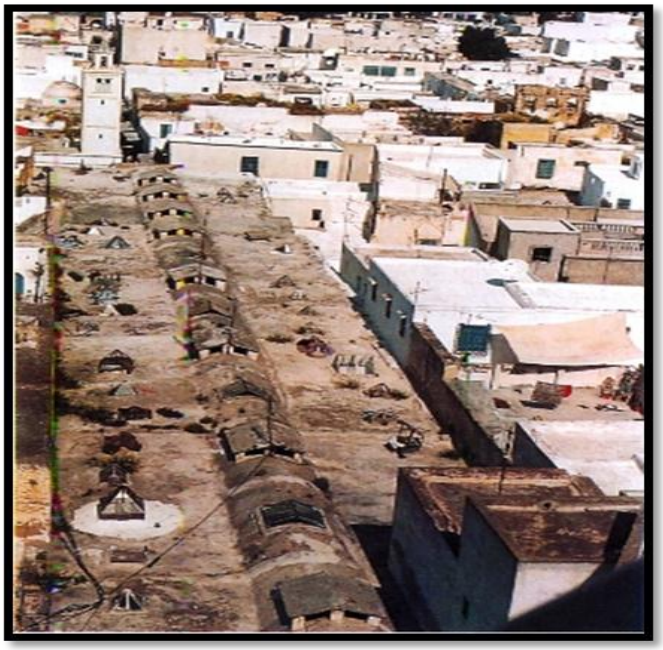

لوحه (٥) تغطيات السوق الجديد

لوحة –٦ سوق اللفة

لوحة–٧ سوق السراجين